(الوجدان)
الامتحان

لأهمية كتاب فائق بطي (الوجدان) الذي بث فيه سيرته الذاتية عبر نصف قرن من تاريخ العراق الحديث، آثرت (المدى) الثقافي أن تنشر بين وقت وآخر حلقات من هذا الكتاب الذي سيصدر عن دار (المدى) بدمشق قريباً لما يلقيه الكتاب من ضوء على مفصل مهم من نشوء الصحافة العراقية، وتطورها وأثرها في المعترك السياسي، واثر التحول من النظام الملكي إلى الجمهوري وما رافقه من أحداث وانقلابات. والكتاب من زاوية أخرى يكشف أسراراً وحلقات مؤثرة من تاريخ العراق السياسي والثقافي.

المدى الثقافي)

-١٠-

فائق بطي

حزيران ١٩٧٦

انتهى اللقاء في صوفيا، نجحا في توقيع اتفاق التعاون بين نقابة الصحفيين العراقيين ومثيلتها في بلغاريا. وفي طريق عودتهما الى بغداد، افترقا في مطار صوفيا. ذهب سجاد الغازي الى اسطانبول، وركب هو الطائرة المتجهة الى بيروت، لعله يظفر بلقاء "نائلة" بعد فراقهما الطويل في بغداد.

كانت بيروت تعيش حالة حرب طاحنة بين ابناء "الوطن الواحد"، وفي وسط هذا التلاطم الجنوني، يقحم ذوو المصالح الذين يقبعون في العواصم العربية، الفلسطينيين في اتون المعركة، تهيجهم تلك المصالح الضيقة، فيفرغون حقدهم في العاصمة العربية الهادئة، بيروت..

عرف هذه المدينة الجميلة، سويسرا الشرق، كما اسماها والده في الخمسينيات، فهاله منظرها الغريب هذه المرة. الشوارع خالية، والمحال التجارية مغلقة. فوانيس الحمرا والروشة ورأس بيروت، معتمة، واكوام المتاريس تنتشر هنا وهناك. وخلف رأس بيروت تلتمع العيون المبحلقة في وجوه الغرباء، ان مروا في هذا المنعطف او ذاك.

في غرفته المطلة على شارع الحمرا في الفندق، راح يدير قرص الهاتف، لعله يظفر بصوت نائلة ليزف لها نبأ وصوله الى بيروت، في هذا الجو المشحون بالمخاط. صعقت نائلة عند سماع صوته يتدحرج عبر سماعة الهاتف. لم تصدق انه جاء في وسط هذا ال راتون الحارق للاجساد البشرية في بيروت الغربية. هرعت اليه بسيارتها الفارهة لتنقله الى المنطقة الشرقية بعد ان تحولت المنطقة الغربية الى ساحة حرب حقيقية.

❖❖❖

ثلاثة ايام طوال منذ ان تركته نائلة في هذه المنطقة الشرقية، وهو يلعن الساعة التي جاء فيها الى بيروت. قالت له ان الشرقية منطقة آمنة، وان الفندق الذي ينزل فيه قريب من قصر بعبدا. الواقع كان عكس ذلك. فهدير المدافع وزخات الرصاص لا ينقطعان، وطرق المنطقة الشرقية غير سالكة في هذه الجولة الجديدة من الاقتتال. كانت القذائف الصاروخية تتطاير فوق العمارات العالية وفي الشوارع المهجورة من دون تمييز.

تساءل مع نفسه؛ اين الهدوء والاستقرار في الشرقية؟

فجأة قرر السفر الى بغداد مهما كانت المخاطر، ولكن كيف يحقق رغبتة هذه، وعاصمة الجمال قد شطرها المقاتلون الى نصفين. وكيف تستطيع نائلة القابعة مرعوبة في بيتها ان توصله الى مطار بيروت الدولي في المنطقة الغربية، وشوارع المدينتين الشرقية والغربية تجوبها العربات المسلحة وقد امتطاها مقاتلون مدججون بكل انواع الاسلحة وهم يحملون الاعلام الملوثة التي لا يعرف رموزها الا المقاتلون انفسهم، والى اية جهة محاربة ينتمون.

جلس حزينا في صالة الفندق يفكر ويحتسي القهوة للمرة الخامسة في غضون ساعة. لمح احد ضيوف الفندق يبحلق في وجهه بين الفينة والاخرى، وقد حسبه من رجال مخابرات الجهة التي يقبع في واديها قصر بعبدا الرئاسي. حاول ان يبعد نظره عن عيون هذا الرجل الغريب. جال ببصره صوب الباب الرئيسي للفندق، لعله يظفر بطلعة نائلة من دون ميعاد مسبق لتنقذه من هذه الورطة والحيرة. فجأة وهو في هذه اللحظات المقلقة، بادره الرجل الغريب بسؤال؛

الأخ غريب عن لبنان؟

أحس بالفعل انه غريب عن لبنان وهو العاشق له ولكل الساكنين في بلد الحب والجمال.

اجابه بحذر:

- ان لبنان في دمي، ولكنه ينزف دما لا يستحقه ..

مد الرجل الغريب يده مصافحا وقال له:

ـــ انا جورج، صحفي من لبنان متقاعد. وانت من اين جئت؟

-انا ايضا صحفي من العراق.

تعارفا بسرعة، وعرف منه ان جورج صديق الجميع، وراح يدافع عن لبنان وعروبة فلسطين، وانه لا يرتبط بأي حزب او جهة سياسية. انه ليس "كتائبيا" او من " الاحرار" او من "القوات الوطنية اللبنانية"، ولا ينتمي سياسيا الى اية جهة تقاتل في بيروت بعضها بعضا، وما اكثرها في هذه الايام، ولكنه لبناني اصيل يدعو الى وطن خال من الزعامات والتدخلات..

نظر اليه، وبعد الاعتذار قال:

-انا افهم ما تقوله، ولكن قل لي بحق السماء، من المسؤول عن هذا الذبح البشري اليومي؟

نهض الرجل من مكانه واحتل المقعد الملاصق الذي يجلس عليه، وهمس في اذنه:

-الزعامات خارج الحدود.

-ماذا تقصد؟

-انهم يختلفون فيما بينهم، فيأتون الينا بهذه المصائب.

-من هم؟

-اعداء شعوبهم واعداء لبنان. فهناك اكثر من عاصمة عربية تدفع الاوضاع من سيء الى اسوأ كما ترى.

سكت كلاهما، بينما راح هو يستذكر احداث المذابح العربية السابقة التي طالت لبنان الهادىء هذه المرة، فاستعرض حوادث ايلول الاسود في الاردن عام ١٩٧٠ بين الفلسطينيين والاردنيين، فسأل صديقه الغريب بصوت حزين:

-اتعتقد يا جورج ان القتال الحالي في لبنان ينحصر بين اللبنانيين والفلسطينيين؟

انتفض جورج ووقف بمواجهته وقال:

-القتال بين ابناء الشعب الواحد في لبنان اشد ضراوة وانتشارا بين الفلسطينيين واللبنانيين، انها حرب مناطق لبنانية اكثر من كونها عروبية. انها الطائفية المقيتة قبل ان تكون قومية.

نظر الى جورج وقال بهدوء:

-ولماذا الطائفية الان، وقد عاش الطائفيون في ارض العرب آلاف السنين قبل وبعد الغزوات التي عرفناها.

اطرق لحظة، قبل ان يجيب:

اسأل الزعامات خارج الحدود. انها تحرك التكتلات متى ما تريد.

قطع النادل حديثهما عندما جاءه ليقول إنه مطلوب على الهاتف. اتجه الى مكتب الاستعلامات الذي اخبره بأن نائلة على الخط، حيث اخبرته بصوت مرعوب بأنها قادمة اليه حالا.

اعتذر من جليسه واتجه الى باب الفندق ينتظر قدوم نائلة، حيث تسكن بالقرب من المنطقة. ألم تقل له بأنها جاءت به الى هذا الفندق لتكون قريبة منه؟

ان الاقتتال لم يكن رحيما.

اطلت بجمالها الساحر وطلبت منه ان يغادر بيروت فورا، بدت خائفة ثم اختفت.

عاد الى جورج.. ألم يقل ابو فادي انه صديق الجميع.

خطر بباله فكرة ان جورج قد يستطيع مساعدته فينقذه من هذه الورطة. لم يشعر بحرج وهو يسأله ان كان بمقدوره ان يوصله الى مطار بيروت هذه الليلة.

لم يكذب جورج الخبر، تركه لحظات وعاد اليه قائلا:

هل انت بالفعل مستعد ان تغادر هذه الليلة؟

تفاءل خيرا وهو يجيبه:

بل فورا.

قال جورج:

-سيأتي صديق لي ويصطحبك الى مكان ما، ومن هناك سوف يستلمك صديق اخر من الطرف الثاني.

ادرك للتو، ان جورج صادق في كلامه، فأعد للسفر عدته، وجلسا ينتظران السيارة المأمونة.

قراءة في مجموعة.. المحطات القصية للقاص سعد محمد رحيم
قص يستدرج محطاتنا القصية

حسين التميمي

على امتداد ثلاثين قصة أو رحلة قصية يسحبنا القاص سعد محمد رحيم للتوغل. مرغمين، إلى عوالمه القصية، والى محطاته التي تذكرنا بأماكن اكثر حميمية مما كنا نتصور، فالقص عند سعد ليس مجرد تحليق خلف امكانات فنية تختصر الواقع إلى صور فنية مفبركة. انما هو اشبه بتجاذب اطراف الحديث مع شخص يبعث على البسيطة غير المقنعة بـ(بروتوكولات الانماط الفنية السائدة) لذا سريعاً سنكتشف حين التوغل في عالم سعد القصصي. اننا كنا نتحدث إلى شخص محبب إلينا، شخص هو أقرب مما كنا نتصور، شخص هو ببساطة الطفل المنسي لدى كل واحد منا. لذا يمكن للتعامل مع عمل كهذا النظر من زاوية المخيال القصصي للكاتب باعتباره جوّاب آفاق يبحث داخل نصوصه التي يبتدعها أو يعيد تمثلها عن طفل منسي في عربة قطار قديمة صدئة، طفل حالم، نسي ان يكبر، لكنه لم ينس ابدا مزاولة لعبته المحببة إلى نفسه، فنراه يختبئ ثم يظهر ما بين سطر وآخر من اسطر القص، فكأنه يلاعبنا بروحه الطفلة التي تكاد تثب امامنا لكي تدلنا على ما اضعناه في غمرة البحث داخل فضاء معادٍ يدعى مجازا حياة.

على الغلاف الاخير من مجموعته (المحطات القصية) كتب سعد: المحطات سلة وعود، ومبتدأ عوالم، ورهان حتى على المستحيل.. في الطريق اليها اتقنت الحلم وأدركت انني لن اكون مؤهلاً للتوافق مع الاشياء، أو للتضاد معها، أو لإثبات المعنى إلا بالاستحواذ على سر اللعبة التي نسميها الكتابة، ذلك ان المحطات تنبئ عن الغياب، وتقول بالرحيل، وتهيئ للغربة والمنفى، وتذكر أيضاً بالموت، وهي أيضاً تنبئ عن اللقاء، وتجهر بالحياة. فالمحطات تطوي في هدير قطاراتها مفارقة الوجود.

ولعل ذلك الطفل أدرك تلك المفارقة مبكراً، لذا راح يختلس الساعات تلو الساعات معتزلاً اترابه، ومقرفصا داخل عربة منسية، والاسئلة تدوي في رأسه الصغير، بفعل أقوى من دوي المطارق، ولأن الاسئلة كانت كبيرة، بحيث لن تترجم إلى اجوبة، انسلخ ذلك الطفل عن ظله، وهو في قاع الظلمة، ولأن قاع الهوة سحيق فربما يلزمه عمر بأكمله كي يصل إلى نتيجة ما، لكنه يعلم كما سـ (نعلم) أنه لن يصل، وأننا لن نصل ايضاً لان سر هذا المسار يكمن في انه مجرد مسار لا أكثر، خطوطه متوازية لن يقدر لها ان تلتقي، خطوط هي اشبه بخطوط القضبان التي ترصع جبين المحطات القصية.

ويمكن القول ان القصة التي حملت عنوان (محطة قصية) تختزل الكثير مما ذهبنا اليه آنفاً، فهنا حوذي عجوز، داخله مهدم ليس من جراء تقادم العمر وحسب، بل لانهم هدموا تلك المحطة القصية المرتبطة في ذاكرته بالطفولة حيث كان يلعب مع أترابه، وله فيها ذكريات واحلام، ربيت معه وربي معها، وليس عبثاً انه كان يتذكر دوماً تلك الفرشاة واللون الاخضر الذي طلى به محطته التي يحب، ولو شئنا ان نترك هذا اللون وعملية الطلاء وما يتبعها من احالات لوجدنا ان القاص يمضي بنا سريعاً في عملية التذكر هذه كي يصل إلى زمن (الحاضر) ليصف هذه الرحلة التي يقطعها العجوز بعربته وحصانه من المحطة كـ(ماضٍ) إلى مخزن تاجر الخردة الذي يفترض فيه ان يمثل زمن الـ (مستقبل) ليحيلنا إلى السؤال المؤلم حول جدوى الاحلام اذا كانت ستفكك إلى قطع صدئة، وسيتم التعامل معها من قبل اناس لن يفهموا قيمها الجمالية بل اقيامها المادية كما هو الحال مع تاجر الخردة، ألا يعني هذا الموت بعينه، ولا يكاد القاص يختلف معنا في استنتاجنا هذا لأنه ينهي القصة بموت الحوذي عند دخوله إلى فناء تاجر الخردة. اما قصة (زيارة) فهي قصة رجل وامرأة تبدأ برحيل القطار الذي جاء بهما من بعيد كما يقول القاص من دون أي تحديد لمكان أو زمان لذا يجد القارئ نفسه محاصرا داخل زمن القص الذي يفرضه القاص ببراعة وتشويق فيسحبنا من خلال الحوار الذي يدور بين المرأة وزوجها إلى محاولة التعرف على سر مجيئهما من بعيد، في آخر الليل وتوجههما إلى مكان مجهول وشخص مجهول لا نعرف عنه شيئاً إلا بنهاية القصة حين يتم اللقاء، وهنا ثمة وجود لطفل متوار بين السطور، طفل لا يريد القاص ان يتحدث عنه ولكنه يترك لمخيلة القارئ ان تكتشف المزيد، عنه عن عالمه الذي أرغم على التخلي عنه. في القصة الثالثة والتي اسماها القاص بـ (المحطة الثالثة) محاولة للإيحاء بأن القصة التي سبقتها هي المحطة الثانية، على الرغم من انها لم تحمل أي اسم له علاقة بالمحطات، اما القصة الرابعة فيحاول القاص ان يمهد لسحب الخيط الذي به نهتدي إلى عالمه القصصي الموزع بين المحطات، فيسميها (محطة التيه) ويفعل (التيه) فعله حين يسربلنا بلغة الشعر، حيث الحبيب يبحث عن حبيبته ويديم زمن القص بلغة الشعر، حتى اذا ما وصل إلى طريق مسدود ينهي القصة بفعل لا ينتمي إلى اجوائها فالباب ينفرج عن وجه عجوز لا علاقة لها بما ترسخ في ذاكرة العاشق، ويقول القاص في نهاية القصة (أماتت؟ أم لعلها اسرفت في الرحيل؟.. أم.. أم.. ؟ يا للأباطيل).

ثم يتخلى بعد ذلك عن مثل هذه التسميات من دون ان يتخلى في الوقت ذاته عن الاشارة إلى كل ما له علاقة بالمحطات والقطارات والسفر والغياب والغربة ولأنني لست بناقد، لن اتصدى لكل قصة على حدة كي أولج فيها مشرط النقد، لذا سأوجز رأيي في المجموعة بالقول: ان المحطات القصية، وعلى الرغم من وجود بعض القصص التي تعكزت على لغة الشعر، إلا انها مجموعة تحوي الكثير من القصص التي تنتخب من ذاكرتنا القصية (أو ذاكرتنا الطفلة) موضوعا لها، لذا هي تتصف بالجرأة على نكئ تلك الجراح بتقانة عالية، هي لا تكتفي بذلك وحسب بل تقترح ومن خلال بعض المفاهيم التي تطرحها رؤية جديدة لما مر بنا، رؤية قد تجمع نقيضين في آن وفقا لمنظور وجودي لا يمكن ان يجد مشروعية له بغير هذا الإطار من القص، مستنداً إلى تجارب واقعية استمدها الكاتب من خلال بيئته التي اقصي عنها أو اقصيت عنه مع توغله في محطات عمره الاخرى حتى صارت تلك المحطات الأول محطات قصية.. تسكنه!!

المحطات القصة صدرت عن دار الشؤون الثقافية العامة ٢٠٠٤م

التماعتان

د. عمار احمد

(١)

لا.. لا تبرو..

رأيتهم يستلون برق شتائهم العتيد سيفا، ويقطعون سنيني به، وينسجون منه ليلهم العنيد شباكاً ليصطادوا احلامي. رأيتهم، وكنت تضحك؛ لتخفف تخمتك بالضغينة.

كنت مطمئناً. تماماً. لانزوائي في غرفتي موصلية الجراح والعبق/ بصرية الجراح والألق، المعلقة بين العزلة والصمت، وانت تسرح وتمرح، مفترشاً الآتي من عمري، أو هكذا ظننت، وكأنك البقاء نفسه.. ورأيتهم يتهيأون، ويستنفرون، ويغدون، ويحزمون، ويحشون، ويملأون بالوقود قاذفات الفناء، وكنت تعلم انهم أذان، وعيون، وقبضات، وكنت تتلمظ!!

هؤلاء الذين قطعوا حبالي الصوتية بشفرات التهم، وسوروا مساراتي بالأوصاف الشائكة، وظللت ساكتا، فضللت.

ضحكت، وتلمظت، وسكتّ

فأي زمن أنت؟!

(٢)

ما زال ينحت بصوته وجهها البهي، وقوامها الباهر الشبيهين بالذهول نفسه. وما زال يكتب بصوته على صفحة ليل معتق مواويل الغياب، واغنيات الإياب، هذا: الشغوف، الرافض، المقل، الحزين، الرزين، العاشق، الراشق الناشف. مثل ايامه. الطموح لجعل العبارة قوساً، والخيال كمانا، ما زج الضوء بالماء، الواضح، الداحض، الثابت، الغيمي، الغضب، النفور، الموسق. ما زال. هؤلاء في هذا وسيظل.. لا تأتيه الخيبة من بين يديه، ولا من خلفه.

نهاية سوق الخضار السعيدة

طالب عبد العزيز

من المفارقات الكبرى وقوع سوق الخضار في البصرة عند النهاية السعيدة لمحال الصاغة في سوق الذهب حيث عيادات الأطباء والصيدليات، هذا التجاور الفنتازي.. لكأن المدينة تداوي مرضاها مرة عند الطبيب وأخرى عند الصائغ. فرؤية الذهب والتمتع بمنظره والتمني في اقتنائه سرور للنفس وترويح عن ضيق الحياة.

وسوق الخضار (الخضّارة) كما تسمى غالباً، هي سوق الطعام المركزي هذا، إذ تضخ منها أطنان الحبوب والفاكهة والخضار واللحوم لتبتلعه المدينة بسكانها المليونين. وفي هذا الزمن الصعب، زمن الرغيف الطائر، الرغيف الذي ما زال يفتك بالعائلة العراقية منذ عشرة أعوام، وما أنفكّ منجلُه يحصد الأخضر واليانع من قلوب العراقيين. ويخترق مثل رمح من نار مواسم أفراحهم، ظلّ سوق الذهب هذا يحتفظ بعافية عجيبة لكأن أيد فرعونية احتفظت بزمنه، عفرته بترابها، وأبقت خلوده رهاناً صعباً، وشاهداً كبيراً لصالح الخير والنماء، لشعب لا يريد عن الحياة بديلاً.

فما زال اللون الأصفر فيه هو سيد الألوان على الرغم من انقطاع التيار الكهربائي اغلب الأحيان، وزجاج معارضه أجمل زجاج الأرض، فهو الزجاج الوحيد في البصرة، الذي يحتفظ بسروره طيلة النهار، وتحفل لياليه بقصص ليس أجمل منها قصص ألف ليلة وليلة، وتصطك جوانحه على الذهب، الذهب الذي يغري المارة ببريقه العذب، فهو زجاج قلبه ذهب، يحسده المحب الولهان، وتتمناه الأصابع والأكف والأعناق.

النساء طبعاً هنّ أكثر زبائن سوق الذهب، وهن المحترقات بحبه، الذائبات بلونه، وهنّ اللواتي يحرقنه بحسراتهن التي تكاد تطفئ مصابيحه الأزلية. وحين يتجولن به، تراهن غاديات ذاهبات، مفتونات بتأرجحه في المعارض، فيقفن أسارى بريقه. ساعة للتمني وأخرى للمفاضلة فالذهب عالم الأنثى ورصيف آمالها، فمن استطاعت أقتنته ومن لم تستطع تمنته.

ويبقى للواتي سيصحبن عرائس قريباً الحظ الأوفر في ارتياده ولأكفهنّ وأعناقهنّ حق التدلّه والتغنج والتباهي، فهن أكثر زهوره بهجة وسروراً، وهن أكثر الناس حديثاً عن ارتفاع وهبوط الأسعار فيه، وغالباً ما يخرجن منه بخاتم صغير لا فص فيه، أو حلقة (دبلة) لا يتعدى وزنها أجزاء الغرام الواحد.

السوق يزدهر أيام الأعياد والمناسبات، وفي الربيع وعقب الشهرين الأسودين (صفر، محرم) لإقبال النساء على الزواج، وفي فترات ما بعد الامتحانات النهائية، ومطلع العام الدراسي ومواعيد تسلم الرواتب بالنسبة للموظفين.

في الأعوام ١٩٩٢، ٩٣، ٩٤، ١٩٩٥ شهد السوق أجمل أيام ازدهاره وسجّل أرقاماً قياسية في البيع والشراء، ففي هذه السنوات سجل أرقاماً قياسية في البيع والشراء، فقد اضرّ الجوعُ بالناس وبلغ الحصار ما لم يبلغه في غيرها من الأيام، فباعت العوائل اغلب ما كانت تتنقل به في حياتها وامتدت أكفُ الحاجة إلى الغالي والنفيس لديها لتحيله خبزاً وسمناً وسكراً وثياباً تستر به أجسادها أو ما ظل من هذه الأجساد، فما سُمي بأيام السعد والرخاء لم تعد التسمية تعني معه شيئاً فقد توحش الرغيف فيها مثلما توحش الإنسان فإن، لم يقتله قتله.

لكن المرأة التي كانت تتفنن في اقتناء مصوغاتها وحليها، وتعقد الأمل فوق الأمل، وتنتظر وتتوعد الأيام، لم تكمل حلمها، ولن تكمله فها هي تودّع زمن الزينة ليحل الزمن الحزينة، فما نفع قلادة على عنق ذابل، ولأجل من تأرجح أقراطها؟ ولأي مساء مظلم تدخر أساورها؟ والدهر يومان.. والذهب الأصفر ينفع في اليوم الأغبر.. واليد التي جاءت به هي التي تحتاج إليه الآن، وهي القادرة بالتأكيد على استرجاعه من فم الزمن المعتم الكاسر.

اخذت ذهبها، مصوغاتها، أقراطها، وأساورها وقلائدها وتمائم ابنائها كل الذي جمعته عبر الأيام والليالي والسنين. وما أهدي لها في أغلى المناسبات أو توارثته عن أمها، كل ما كان لامعاً على الصدر، وبراقا في المعصم، اخذته إلى الصائغ، الصائغ الذي دكانه عند النهاية السعيدة لسوق الخضار، الذي لا يبيع الطحين ولا السمن، لكنه يشتري الذهب، والبائع المحتاج ليس كالمشتري البطران، الله وحده يعلم كيف كانت لحظة استلال المصوغات من حافظاتها لتضعها على الطاولة، الطاولة التي وقفت عندها اكثر من أمرأة قبلها لتضع عليها تعب العمر وأجمل لحظاته، لتضع الذكريات الحلوة، ايام الصبا، أيام الشباب.. المناسبات العزيزة الناس الذين احبتهم، اهلها.. كلها.. كلهم، هذه الاشياء، كيف يستطيع انسان ان يبيع لحظاته، حياته، تاريخه، هل تباع التواريخ بهذه البساطة ولنا فيها مال يمكن ان يعوض فالمرء، هو حاجاته، لحظاته، ما الانسان لولا أشياؤه؟ كيف به اذا كانت اشياؤه كلها ذهباً، (ذهبت).

المرأة تحرص على ان تضع مصوغاتها في أجمل الحافظات، وتختار ما تختار لذلك، لكن الصائغ (المشتري) لا يأبه، فطاولته التي تحفل كل يوم بمختلف انواع الحلي لا تتزين به سوى لحظات، فهو يجمع ما اشترى في اليوم ليعجنه في اناء واحد. فاسوارة ابنة الجنوب (الحضرية) مع خاتم البدوي، وتميمة الطفل من المدينة مع قلادة امرأة من المعدان، وقرآن المسلمة مع صليب الفتاة المسيحية وأقراط الطفلة من الحيانية مع كلاب امرأة عجوز من أهل الدير.. وهكذا يعجن الصائغ الآمال والافراح، الأيام والهدايا والمناسبات السعيدة في فرن واحد، لمئات الاصابع والمعاصم والاعناق ثم يجعل منها صخرة صماء (صفراء) لا حياة فيها، بلا نقوش ولا رسوم ولا أسماء، بلا تواريخ بلا حياة، هكذا يحيل الجوع أجمل ابتسامات الدنيا إلى حجر لا معنى له: فالذهب على الرغم من كل صفاته لم يحظ يوماً بتسمية كريمة، لكنهم قالوا عن احجار اخرى إنه حجر كريم.

يوضع الذهب عادة في مكان آمن في البيت، فالاثرياء يحكمون القاصات الكبيرة، له والبسطاء يضعونه في الصناديق التي يثقون بأقفالها، وهكذا دأب الناس على الاحتياط في حفظه، لكنه وفي لحظة غادرة من الزمن فقد هيبته ليوضع في اوحش المحفظات، وها هو في محفظة من النايلون الاسود، اختيرت لتمنع فضول اللصوص ولتبعد الشبهة عن حاملها والتعرض له، ثم تدس في اوحش الجيوب، ولتحمل وتشيع إلى مثواها الاخير، ثم تسجى مثل جثث نخرة على دكة الصائغ، لا لمعان لها، فقد اختفى بريقها وراح سؤددها، بل هو يحط من شأنها وصياغتها وقدم انموذجها فتتمسكن المرأة أمامه مرةً، وتكابر مرة أخرى، تحاول معه نرفع السعر قليلاً فتخلع على ذهبها أجمل الألقاب، (عيني هذا ذهب تيزاب ٢٤ حباية.. والله كريم، (مال كبل)، اشترته أمّي في عيد ميلادي، إهداني إياه أبي في أول صباح من زواجي، جئت به من ايطاليا عندما كنت هناك، اتى به زوجي، من تركيا.. ذهب ليرة أي والله..)

لكنها بائعته لا محالة، فتأخذه إلى صائغ آخر وآخر، تُعيد وتزيد لكنهم متشابهون، والسعر واحد في البصرة، في العشار أو في الزبير. وان اختلفت الابتسامات واختلفت كلمات الترحيب فقد تركت الأولاد بلا طحين، والسمن لا يكفي وجبة واحدة، ونفد السكر والعيد على الابواب، وغداً نهاية العطلة، سيبدأ الموسم الدراسي، إذن ثياب وحقائب وأحذية وتنورات.

سيزن الصائغ الأفراح.. (الذهب) ويعطي المرأة بضعة دنانير زرقاء وخضراء وبنفسجية شاحبة، بعضها ممزق، وملصق بشرائط شفافة.. ها هو كيس الحلي، كيس العمر العذب، كيس الحب والقبل والشوق والأمنيات، مبعثراً على طاولة الصائغ، وقد استحال رزمة أو رزمتين من أوراق محلية لا تساوي ثمن طباعتها، وستترك حافظتها عنده، لم تعد مهمة، وستزرم الألم والعذاب والحزن، ستتحول الاوراق في لحظات إلى عربة يدفعها صبي اسمر حاف، فيها كيس طحين قال البقال انه طحين ممتاز واقسم على ذلك والعهدة على يمين البقال.. وعلبة سمن مستوردة مزينة بصورة لخراف سمينة تقول إنه سمنٌ من أجود الانواع، والعهدة على الشركة والخراف معاً، لا حاجة لنقول إن السكر سكرٌ ممتاز حلو والعلم عند الله فاللون اسود والرائحة رائحة شاي ولا علم لنا ما إذا كان اللون والرائحة كافيين ليكونا شايا ممتازاً.. وهكذا مع بعض حاجيات أخر للأطفال.. حلو رخيصة، ملابس مستعملة، وربما عليه ماكياج عادية، واشياء لا يحسن بنا ذكرها هنا تحولت المحفظة (العلاكة) إلى (علاكة) فعلاً ليس فيها سوى ذكرى نقود، ذكرى صفراء بائدة.